

الهوية السردية والبعد الإنساني في رواية ليون الإفريقي لأمين معلوف.

*The narrative identity and the human dimension through
the novel "Lyon African" for "Amin Maalouf."*

بلقاسم زروالة.

- جامعة أحمد بن يحيى الونشريسي؛ تيسمسيلت (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: belgacem.zerouala@univ-tissemsilt.dz

تاريخ الإرسال: 2025/09/22؛ تاريخ القبول: 2025/11/25؛ تاريخ النشر: 2025/12/15.

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى مقارنة رواية ليون الإفريقي لأمين معلوف من خلال استكشاف جدلية الهوية السردية والبعد الإنساني فيها، فالرواية لا تقتصر على كونها حكاية تاريخية تستعيد رحلة شخصية فريدة، بل تتجاوز ذلك لتطرح أسئلة عميقة حول الهوية في سياق التحولات الثقافية والتاريخية وكيفية تمثيل الذات لعلاقتها بالآخر، ويكشف التحليل أن السرد في هذه الرواية يتبنى بعد إنسانيا كونيا، يجعل من التجربة الفردية أفقا لفهم التعدد الحضاري والتعايش الثقافي، مما يمنح النص بعدا يتجاوز الحدود الجغرافية.

فهل نسعى إلى إعطاء مفهوم الهوية بعدا إنسانيا أي قابل أن تتفاعل فيه الهويات أم تتفاعل فيه مصائر الشخصيات من أجل غاية إنسانية أم الدفاع عن هوية مقابل هوية أخرى؟

الكلمات المفتاحية: الهوية السردية؛ البعد الإنساني؛ رواية؛ ليون الإفريقي؛ أمين معلوف.

Abstract:

This study aims to engage with Amin Maalouf's *Leo Africanus* by exploring the dialectic of narrative identity and its human dimension. The novel is not limited to being a historical tale that recounts a unique personal journey; it goes beyond that to raise profound questions about identity within the context of cultural and historical transformation, and how the self perceives its relationship with others. The analysis reveals that the narration in this novel adopts a universal experience as a horizon for understanding cultural diversity and cultural education, giving the text a dimension that transcends geographical boundaries.

So, do we strive to give the concept of identity a human dimension and meaning before identities interact, or do the characters' destinies intersect for a human purpose, rather than to defend one identity against another?

Keywords: narrative identity; human dimension; novel; *leo africanus*; amine maalouf.

مقدمة:

الرواية تعبير عن الهوية ونجد ذلك يتحقق لنا بصورة واضحة من خلال المتكلم عن الرواية سواء يتحدث بضمير المتكلم أو المخاطب فهو يتوجه إلى القارئ وهو بهذا التوجه يسعى إلى تجسيد هوية معينة أو البحث عن هويات متعددة فهو محاولة البحث عن الذات إذ لا يمكن أن نتحدث داخل العمل الروائي عن شخص أو ذات تعيش بعيدة عن الذوات الأخرى فالأنا والآخر يتجسد بصورة واضحة داخل العمل الروائي.

وقد جسد الروائي اللبناني أمين معلوف عبر كتاباته الآن والأخر من خلال الآن الشرقي بكل عاداته وتقاليده ومذاهبه والأخر الغربي بما يشكله من أفكار وعادات تخالف الشرقي وتجلى ذلك بوضوح من خلال رواية ليون الإفريقي إذ اختار شخصية واقعية وهي شخصية الرحالة الأندلسي الحسن بن محمد الوزان. لقد اعتمد الكاتب أمين معلوف على السرد الذي يتميز بالشمولية للأحداث التاريخية بلغة قريبة إلى لغة أدب الرحلة وأفرد مساحة كبيرة لوصف الظروف السياسية والتاريخية التي كانت تحيط بالشخصية البطلة الحسين بن الوزان كما قام بسرد الأحداث والسمات الفنية للحسن الوزان وباقي الشخصيات الموجودة في الرواية وركز هذا السرد على سؤال الهوية كفكرة ثابتة على امتداد حياة البطل.

وقد طرح أمين معلوف تصويره للهوية من خلال رواية ليون الإفريقي وأجاب على تساؤلات عديدة ومن بينها:
هل يمكن أن تستوعب الهوية هويات متعددة؟ لأن أي مجتمع سنجد فيه تعدد الأعراق والانتماءات.

هل يمكن تضمين الهويات داخل الكيانات الاجتماعية الحديثة؟ وكذلك هل يمكن أن نراعي الحدود بين كل هوية؟ وهل هذه الحدود ثابتة أم أنها متحركة؟

تسعى هذه الدراسة إلى كشف العلاقة بين السرد والهوية وفق بعد إنساني، فمسألة الهوية هي مسألة وجودية حيث الدفاع عن الهوية الذاتية هو دفاع عن الخصوصية الثقافية. وإن الكتابة هي تعبير عن الذات بصورة خاصة والنصوص السردية هي في الحقيقة بحث عن هوية

خاصة للكاتب أحيانا أو دفاعا عنها، وهذا يكشف بصورة خاصة عن طابع الهوية داخل النص، وهذا سر من أسرار إقدام الإنسان على قراءة النصوص الأدبية وبالخصوص السردية فنحن نريد أن نستكشف ذواتنا وهوياتنا في تفاعلها مع النص الأدبي فالإنسان في أي نص يكتبه هو بشكل أو بآخر يبحث عن هويته أو يسعى إلى تدعيم هوية موجودة ويدافع عنها، وهذا ما يحصل في استغلال الهويات بدل أن تكون عامل إثراء للهويات المتعددة، وانفتاح بعضها على بعض تصبح هذه النصوص دفاعا عن خصوصية مع طابع متميز عن غيره وهذا ما يسعى إليه الأدب، صحيح قد ننطلق من الهوية الخصوصية وهذا مهم جدا فحين نتحدث عن الثقافة المغاربية علينا أن نجسد مغربنا في نصوصنا الإبداعية، ولكن هذه الخصوصية إذا لم تكن مع أبعاد تهم الإنسان في كل زمان ومكان لا يمكن أن نتحدث عن هوية حقيقية، فهو التمحور على الذات بهدف البحث عنها في نطاق ما هو إنساني، وهذا ما نسميه بالانفتاح أما التمحور على الذات من أجل عزلي عن الآخر فهذا لا يمكن أن يقدم إبداعا حقيقيا ولا رواية حقيقية.

1 - مفهوم الهوية :

تعد مقولة الهوية موضوعا للتفكير الفلسفي منذ أقدم العصور وإلى الآن تداخلت مقاربتها مع مفاهيم عديدة كالجوهر، الماهية، الذات وغيرها فهي كمفهوم فلسفي تجريدي تعرف منذ أرسطو على أنها الجوهر الثابت أو حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره. والهوية كما جاءت في لغة العرب هي الذات والأصل والانتماء والمرجعية

والماهية والجوهر والحقيقة والثوابت والمبادئ والتشخيص، والشخص نفسه والوجود الخارجي.

تعرف الهوية بأنها: "مثالية الصورة الذهنية في تمثيلها لمقتضيات الحال من ارتباط عاطفي باللسان/اللغة، والأرض والذاكرة التاريخية والإرث الثقافي للجماعة والدين في أسى تجلياته الكونية" (رايس، 2017، ص: 183) ولكن وبحكم اجتماعية الفرد وارتباطه بالأنساق الثقافية لمجتمعه فهو بحاجة إلى ثقافة تصقل شخصيته وتتميمها وحينها يتجلى الاختلاف بين الذات والآخر فيتحقق للهوية وجودها الكينوني الذي ينطلق من الاختلاف والتمايز والتمييز.

ولما كانت الهوية في العصر الحداثي وليدة ظروف عالمية فإننا ننظر إليها كمصطلح إيديولوجي مرادف للوحدة والوجود والذاتية والخصوصية، تتشكل بتكامل مجموعة من المعطيات المعرفية والثقافية والتاريخية المتميزة التي لا يمكن تحقيقها إلا عبر الإحساس بها عبر مشاعر الانتماء والتكامل والاستمرارية الزمانية، التنوع، القيم، الاستقلالية، الثقة بالنفس، الوعي بالوجود، والهوية متحولة تبعا لتحول الواقع، مكتسبة على اعتبار أن الإنسان هو الذي يخلقها وفق صيرورة ومنطق التحول، ومحددات الهوية هي اللغة، الدين، والذاكرة القومية.

2 - مفهوم السردية:

"تعني السردية باستنباط القواعد الداخلية للأجناس الأدبية واستخراج النظم التي تحكمها وتوجه أبنيتها وتحدد خصائصها وسماتها ووصفت بأنها نظام غني وخصيب بالبحث التجريبي وهي

تبحث في مكونات البنية السردية من راو ومرو له، ولما كانت بنية الخطاب السردى نسجا قوامه تفاعل تلك المكونات أمكن التأكد على أن السردية هي المبحث النقدي الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردى أسلوب وبناء ودلالة" (إبراهيم، 2005، ص: 7).

ويعرف غريماس (Greimas) السردية بقوله: "السردية هي مداهمة اللامتواصل المنقطع للطرد المستمر في حياة تاريخ أو شخص أو ثقافة إذ نعمد إلى تفكيك وحدة هذه الحياة إلى مفاصل مميزة تدرج ضمنها التحولات ويسمح هذا بتحديد هذه الملفوظات في مرحلة أولى من حيث هي ملفوظات فعل تصيب ملفوظات حال فتؤثر فيها" (العجيمي، 1993، ص: 56).

3 - السرد والهوية:

"يؤكد بول ريكور على دور الجانب السردى والقصصى في تشكيل هوية الفرد والجماعة فالسرد هو إحدى العوامل المساعدة على تمظهر الذات ووجودها في التاريخ بكون الحياة تجربة نعيشها ولا نروها أما الروايات فتحكى ولا تعاش وفعل السرد فعل مركب حيث يصعب وضع حدود بين الحياة والوجود والتاريخ نظرا لتدخل عنصر الخيال الذي يربط بين عناصر التجربة في الزمان ويضفي عليها الانسجام كما أن الخيال هو نوع من الفهم السابق عن الفعل السردى الذي يث الحياة في الذاكرة ويعمل على تفعيلها والسرد ماهو إلا محاولة لإعادة بناء التجربة الحياتية وفعل البناء يقترب من مفهوم إعادة الانتاج *la reproduction* عند بيار بورديو *1930-2002 pierre bourdieu* بكون فعل الإبداع تعبير عن تفاعل بين عالم النص وعالم القارئ" (ريكور، 1999، ص: 46).

إن الفعل السردى يمكننا من بناء الهوية كم هو شأن الشخصيات في التاريخ فعن طريق القص والحكي تتشكل الهوية السردية ويتم التفاعل معها بكونها تجربة حياتية لها معنى مما يعني أن الهوية الذاتية، تتشكل بعد عملية الانعطاف التي تقوم بها على المنتج الثقافي والرمزي الذي تلتقيه في الحياة اليومية والوسائط السردية تساعد الذات على تشكيل الوعي بذاتها عبر تأويل تجربتها تأويلا سرديا بمساعدة الخيال، والسرد هو: "الكيفية التي تروى بها القصة عن طريق قناة الراوي، والمروى له، وما تخضع له من مؤثرات بعضها متعلق بالراوي والمروى له والبعض الأخرى متعلق بالقصة ذاتها" (لحميداني، 2003، ص: 45).

وأما سعيد يقطين فيعرفه في كتابه "الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي كما يلي: "فعل لا حدود له يتسع ليشمل الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية يبدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان ويصرح رولان بارت *Rollan Barth* قائلا: يمكن أن يؤدي الحكي بواسطة اللغة المستعملة شفاهية كانت أو كتابية وبواسطة الصورة ثابتة أو متحركة وبالحركة وبواسطة الامتزاج المنظم لكل هذه المواد، إنه حاضر في الأسطورة والخرافة والأمثلة والحكاية والقصة" (يقطين، 1997، ص: 9).

إن حقيقة الذات لا تتكشف إلا عبر الإنصات للآخر الذي يملك رؤية مغايرة عن الوجود واللقاء مع المختلف هو سر حيوية الحياة ويمكن الالتقاء مع الآخر من خلال عالم القصة والرواية والحكاية لأن هذه الفنون الأدبية ماهي إلا نصوصا يمكن للذات أن تدرك نفسها من خلالها كما أن الحكايات والقصص هي تعبير عن واقع بشري

معين، والسرد مصطلح نقدي حديث يعني "نقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية" (يوسف، 1997، ص: 28)، ودور المؤهل هو اكتشاف البعد الانساني حتى في تلك الحكايات المغرقة في الخيال، وعليه يمكن القول "إن السرد هو الطريقة التي يختارها المبدع أو الروائي ليقدم بها الحدث أو أحداث المتن الحكائي، ولهذا للسرد أشكال كثيرة تقليدية، كالحكاية عن الماضي تتم بضمير الغائب، كما هو الحال مع رائعة ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والمقامات بوجه عام وجديدة تصطنع ضمير المخاطب أو ضمير المتكلم أو استخدام أشكال أخرى كالمناجاة الذاتية والاستباق والارتداد" (يحي، دت، ص: 6).

لهذا يدعونا ريكور إلى ضرورة الانتباه إلى تلك الحياة الحكايات الشعبية والأساطير الاجتماعية التي تسكن الهامش فهو على خلاف البنيوية التي لا تلتفت إلى خارج النص وتنظر للنص على أنه بنية مغلقة لأنى المعنى في حالته ترحال دائم ويجعل ريكور من التاريخ مجالا خصبا للحكايات والقصص يقول: "الحياة لا تفهم إلا بالحكايات التي نرويها عنها وعبر الحكايات تنتقل التجارب الانسانية في الزمن ويمكن مشاركتها مع الغير وهنا تكمن قيمة السرد" (ريكور، 1999، ص: 53).

4 - تجليات الهوية في رواية ليون الإفريقي:

تبدو شخصية ليون الإفريقي الذهنية قائمة على الشك الذي يجعل الإيديولوجيات والتعاليم والأعراف وحتى العقائد الدينية، موضع تساؤل ولذلك تبدو شخصية ليون الإفريقي فاترة في انتماءاتها الدينية والعرقية والاجتماعية فهي شخصية دينامية متحركة لذلك فشخصيته

متشكلة في نطاق هوية غير مستقرة لأن الشك يلزمه إزاء كل الأفكار التي تراوده ومع ذلك فشخصيته متميزة عن الآخرين لأنها دائما تجتاز الانتماء إلى مفاهيم تتسجم مع ذاته الإنسانية فهو يمتلك شخصية متسامحة تؤمن بالاختلاف وتتقبله وقادرة على الاندماج في المجتمع الذي تعيش فيه رغم تمرداها على بعض أفكاره "كما تكشف الأزمات التي عاشها بطل الرواية الحسن الوزان عن التعسف الاجتماعي الذي يمارسه الإنسان في تصويره هوية الآخر هذا التصور الذي ينطوي على انفصام بين انتماء الإنسان الأصولي الذي يتحدد بكونه امتدادا للأبناء والأجداد وانتمائه الوجداني الذي يتحدد بالولاء الاختياري ومن ثم تصبح الصراعات السياسية والإيديولوجية والدينية هي العوامل الحاسمة في علاقة الذات بالآخر" (معلوف، 1999، 26).

5 -الانتماء للوطن والشك في الوطن المتنقل:

لم يعطي الراوي أهمية لانتماء البطل لبلده فهو لا يعده أساسيا حيث افتتح الرواية بقوله: "ختت أنا حسن بن محمد الوزان يوحنا ليون دوميتشي بيد مزين وعمدت بيد أحد الباباوات وأدعى اليوم الإفريقي ولكني لست من إفريقيا ولا من أوربة ولا من بلاد العرب وأعرف أيضا بالغرناطي والفاشي والزياني ولكني لم أصدر عن أي بلد ولا أي مدينة ولا أي قبيلة فأنا ابن سبيل، وطني هو القافلة وحياتي هي أقل الرحلات توقعا" (معلوف، 1990، ص: 9).

لذلك تتقلص أهمية الهوية الثقافية بوصفها عاملا إيجابيا في بناء خصوصية الذات وتبنى على مفاهيم معرفية ذات طابع إنساني كالحرية والعقلانية التجريبية هذه الهوية قادرة على منح الذات

خصوصيتها إلى جانب قدرتها على الجمع بين الناس بوصفها مشتركا إنسانيا وهذه الهوية تكتسب أهميتها كونها هوية اختيارية تعبر عن روح الإنسان وعن قناعاته الحقيقية، "فالحياة الغنية بالمغامرات والمفارقات والتنقل بين قارات العالم المعروف آنذاك كل هذا أنتج ذهنية تتميز بالتعددية والتسامح" (فرج، د.ت، ص: 65).

6 - الشخصيات في رواية "ليون الإفريقي":

إن الشخصية "ركيزة الروائي الأساسية في الكشف عن القوى التي تحرك الواقع من حولنا وعن ديناميكية الحياة وتفاعلاتها فالشخصية من المقومات الرئيسية للرواية"، وهي إذ تكشف عن حراك المجتمع الثقافي والفكري والسياسي والديني، فإنها تجسد أنماط العلائق القائمة فيه وتنقل تصورا لمفاهيمه ومعتقداته ومن ثم فإن الشخصيات هي القادرة على تمثيل دوال الهوية في الرواية كما أنها قادرة على تجسيد إشكالياتها من خلال تفاعلها ضمن الإطار الثقافي الذاتي أو خارج الإطار الثقافي الذاتي في سياق تفاعلها مع الآخر "فلا مناص من أن تحيا الأفكار في الأشخاص، أو تحيا بها الأشخاص وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلا مع الوعي العام في مظهر من مظاهر التفاعل على حسب ما يهدف إليه الكاتب" (عزيز، 2015، ص: 52).

ليست الشخصية مرآة صافية للقيم التي تعلنها بل تحمل في أعماقها القيم التي انغrust فيها عبر مسار النشأة الثقافية الخفية ومن هنا يظهر التناقض بين ما تؤمن به ظاهرا وما تمارسه واقعا وقد ينشب صراع بين أحلامها وما تود بلوغه وبين القيود التي تفرضها الأعراف

الراسخة في المجتمع، "وإن كانت الصراعات التي تعتمل داخل الشخصيات محركا سرديا دراميا دافعا للأحداث نحو التصاعد والتأزم فإن مهارة الكاتب المبدع تكمن في قدرته على خلق شخصيات قادرة على تمثيل الصلات العميقة بين الهم الفردي الخاص والهم الموضوعي العام" (لوكاتش، 1972، ص: 28)، إذ تغدو الشخصية بهمومها وأزمته وأسئلتها وأحلامها والعقبات التي تحول دونها عيّنة تكشف عن الخلل البنيوي والمفاهيمي الكامن في الوعي الجمعي.

"إن تكريس البطولة الفردية في الرواية العربية راجع إلى "إحساس الأديب بشخصيته الفردية وما تتعرض له من إحباطات قاسية وأزمات عنيفة نتيجة للصراع المتعدد الجبهات، بين الأديب ومجتمعه وبين القيم الحضارية الغربية وبين الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي تسحق فيه شعور الانتماء إلى أرضه وتاريخه" (السعافين، 1980، ص: 193، 194).

وبما أن الكاتب صار يصدر عن إحساس فردي اتجاه الظروف والقضايا المختلفة فإنه سيلجأ إلى الطريقة التحليلية في تقديم شخصياته مركزا على الشخصية الرئيسية يسقط عليها كل همومه ومشكلاته وتسألاته في رحلة للبحث عن الذات وسط عالم جديد يبرز مختلفا بقيمه ومفاهيمه وفلسفاته عن طبيعة العالم الذي نشأت فيه منظومة القيم والمفاهيم الاجتماعية الموروثة.

ولما كانت روايات "معلوف" تصدر عن فلسفة تهتم بالخاص والفردي فقد جاءت شخصيات الرواية من خلال مفهوميين: أولهما هو تعدد الهوية، وثانيهما هو الشك المعرفي والبحث المستمر عن الهوية.

7 -الآنا والآخر في رواية ليون الإفريقي:

يُقدّم أمين معلوف في رواية ليون الإفريقي معالجة سردية عميقة لمسألة الأنا والآخر، من خلال بحثه الدؤوب عن نموذج إنساني يتجاوز ثنائية الانتماء والانغلاق نحو فضاء التسامح والتعايش. فالكاتب لا ينشغل فقط بحدود الهوية الثقافية، بل يعيد مساءلتها عبر بناء شخصيات تتحرك في فضاءات هجينة تُذيب الحدود بين الشرق والغرب، بين العربي المسلم والآخر الغربي المسيحي.

وفي هذا الإطار، يبدو معلوف منشغلاً بما يمكن تسميته بالهوية المتحوّلة، أي الهوية التي لا تكتمل إلا بالحوار مع الآخر والانفتاح عليه. إذ يرى أن غياب التواصل بين الذات والآخر يؤدي إلى انكماش الإنسان داخل حدوده الضيقة وفقدانه بعده الإنساني. ومن هنا، فإن الانفتاح في مشروعه الروائي ليس خياراً ثقافياً فحسب، بل قيمة إنسانية جوهرية.

يذكرنا هذا المنظور بأن الحضارة العربية الإسلامية بلغت أوج ازدهارها حين تفاعلت مع الآخر، فالإبداع لا يولد في العزلة بل في التفاعل، حيث يصبح الحوار وسيلة لخلق التفاهم وكسر الصور النمطية المتبادلة. فالحوار، كما يظهر في الرواية، يُعيد تعريف الذات عبر اكتشاف الآخر، ويكشف أن التمايز لا يعني القطيعة بل التكامل. وبهذا المعنى، يتحول السرد عند معلوف إلى أداة لإعادة صياغة العلاقة بين الأنا والآخر، وتفكيك التصورات الجاهزة التي تُؤلّد الصراع والعزلة.

يشكّل السرد في ليون الإفريقي تجسيداً فنياً لمسار الذات وهي تعيد كتابة وجودها عبر الذاكرة والترحال. فـ"الأنا الساردة" لا تكفي بسرد الحوادث، بل تمارس فعلاً تأملياً في هويتها، إذ تستحضر

ماضيها لتعيد بناء حاضرها. إنَّ الحاضر في الرواية قائم على ذاكرة الرحلة، والرحلة هنا ليست مجرد تنقّل جغرافي، بل عبور وجودي وهوياتي، حيث تتحول الهوية إلى مشروع متجدد يعاد تشكيله في كل لقاء مع الآخر، ورغم أن البطل ليون الإفريقي يعيش خارج وطنه الأصلي، إلا أن اغترابه لا يُفقد ذاته، بل يدفعه إلى توسيع مفهوم الانتماء ليشمل أمكنة وثقافات متعددة. فشخصيته تمثل نموذج الإنسان العابر للحدود، الذي لا تحدده الجغرافيا ولا المذهب، بل تحدده خياراته الذاتية ووعيه الإنساني.

إنه إنسان منفتح على الكثرة، ينتمي إلى الإنسانية قبل أن ينتمي إلى الوطن، لذلك يبدو "الانتماء" في الرواية متحركاً، نسبياً، ومفتوحاً على التجدد، يقول الحسن بن محمد الوزان في مطلع الرواية: "لست من إفريقيا، ولا من أوربة، ولا من بلاد العرب... وطني هو القافلة، وحياتي هي أقل الرحلات توقّعاً... ولسوف تسمع في فمي العربية والتركية والقشتالية والبربرية والعبرية واللاتينية والعامية الإيطالية، لأن جميع اللغات وكل الصلوات ملك يدي، ولكنني لا أنتمي إلى أي منها" (معلوف، 1990، ص. 9).

هذا التصريح لا يعبر عن ضياع الهوية، بل عن تحرّرها من القوالب الجاهزة، إذ تُعيد الذات تعريف نفسها بوصفها نتاج تفاعل مع العالم، لا انعكاساً لسلالة أو عقيدة واحدة.

ف"ليون" ليس منفياً بالمعنى الجغرافي، بل هو كائن عبور يصهر تعدد الثقافات في هوية هجينة تمثل روح العصر الإنساني، ويعيش البطل في منطقة متذبذبة بين الانتماء واللائتماء، بين الذاكرة والرحلة، وبين

الأصل والتحول. إنَّ ازدواج هويته -كونه مسلماً ومسيحياً في آنٍ واحد -لا يُقدِّم بوصفه تناقضاً، بل بوصفه تجربة إنسانية تتجاوز الصراع العقائدي، فهو يقول: "خُتِّتُ أنا حسن بن محمد الوزان يوحنا ليون دو مديتشي بيد مزين، وعُمدت بيد أحد الباباوات" (معلوف، 1990، ص. 9).

يُجسِّد هذا المقطع التعدد الديني والثقافي الذي يراه معلوف شرطاً للهوية الحديثة، حيث يصبح التنوع جزءاً من الوعي بالذات. فالحسن، رغم نفيه وتشريده على يد القشتاليين، لا يحمل عداً للمسيحية، بل يتعامل مع الآخر من منظور إنساني رحب، مؤمناً بأن الحقيقة الدينية ليست حكراً على مذهب واحد، بل تتقاسمها الأديان في جوهرها الأخلاقي، وهكذا تتحول تجربة البطل إلى رحلة في داخل الإنسان نفسه، رحلة بحث عن المعنى وسط تعدد الانتماءات، حيث تُبنى الهوية من خلال الاعتراف بالاختلاف لا إنكاره.

تُبرز الرواية من خلال شخصية "الحسن" الهوية كفعل حرّ وإرادي، لا كقدر موروث. فالبطل يصنع ذاته من خلال اختياراته لا من خلال نسبه، ويتعامل مع ماضيه كذاكرة حيّة لا كقيّد ثابت. إنه نموذج للذات الحرة التي تتجاوز الانتماء البيولوجي لتؤسس انتماءً إنسانياً شاملاً، وبذلك، يصبح معلوف -عبر بطله -صوتاً ضدّ التماثل وضدّ الانغلاق، مُعلنًا أن الثبات الهوياتي مرادف للموت الثقافي، وأن الإبداع الحقيقي لا يولد إلا من الانفتاح والتعدد.

من خلال الأنا والآخر في ليون الإفريقي، يعيد أمين معلوف بناء مفهوم الهوية ليجعلها حواراً مفتوحاً بين الذات والعالم، لا معركة صراع بين "نحن" و"هم". فالسرد عنده لا يروي فقط رحلة شخص، بل

يُجسّد رحلة الإنسان في بحثه الدائم عن المعنى والانتماء، حيث تتقاطع الجغرافيا بالدين، والذاكرة بالحرية، لتصوغ هوية جديدة تتكئ على المشترك الإنساني لا على العرق أو العقيدة.

8 -الهوية اللغوية والبعد الإنساني:

تُعَدُّ اللغة عاملاً جوهرياً في تكوين الهوية، إذ تمثل الخصوصية والاختلاف في آنٍ واحد. فهي ليست مجرد أداة تواصل، بل هي وعاء الثقافة وذاكرة الجماعة. يقول معلوف: "إن اللغة هي المعرفة، وإنها الخصوصية والاختلاف في الوقت ذاته؛ فهي التي تحدد خصوصيته وهويته الحضارية"(معلوف، 1999، ص. 184).

ومن هذا المنطلق جعل أمين معلوف بطله ليون الإفريقي يتحرك في فضاء لغوي وثقافي متنوع، إذ يقول في مطلع الرواية: "ولسوف تسمع في فمي العربية والتركية والقشتالية والبربرية والعبرية واللاتينية والعامية والإيطالية، فإن جميع اللغات وكل الأصوات ملك يدي"(معلوف، 1990، ص. 185).

هذا التعدّد اللغوي لا يعكس اضطراباً في الهوية، بل يدل على غنى ثقافي وإنساني ناتج عن التواصل مع شعوب وثقافات مختلفة. فإتقان اللغات لم يكن هدفاً بحدّ ذاته، بل وسيلة لفهم الآخر وبناء علاقات قائمة على الأخذ والعطاء والمثاقفة الإيجابية.

أما الجانب السلبي للمثاقفة فيتمثل حين يسعى الفرد إلى تبني ثقافة أخرى هروباً من هويته الأصلية أو رفضاً لمجتمعه، غير أنّ حالة ليون الإفريقي تختلف؛ إذ كان تعدّد لغاته ناتجاً عن تجارب واقعية

قسرية أكثر من كونه خياراً فكرياً، وكان يستخدم كل لغة وفقاً
للبيئة والظروف التي يعيشها.

ومن هنا يتبين أن أمين معلوف لا يرى في تعدد اللغات تهديداً
للهوية، بل يعتبرها أداة تواصل وتفاعل حضاري. فهو يقول:

إن الاكتفاء في مجال اللغات بالحد الأدنى الضروري يتنافى مع
روح عصرنا، ولو أوحى المظاهر بعكس ذلك " إسماعيل، 1999، ص.
292)، ويرى معلوف أن اللغة ليست مجرد وسيلة تواصل، بل محدّد
أساسي للهوية، وأن اكتساب لغات متعددة يُمكن الإنسان من التعرف
إلى ثقافات مختلفة والانفتاح عليها، دون أن يفقد انتماءه الأصلي.

9 - الهوية الدينية:

مما لا شك فيه تأثير الدين في الهوية وارتباط الأخيرة به فقد نشأ
ليون الإفريقي في بيئة عربية مسلمة تمارس فيها الشعائر الدينية
وتحتفل بالأعياد الدينية وتقدسها وظهر ذلك جلياً في الرواية حيث
يقول: "ولمعرفة ما يعنيه ختم القرآن في حياة مؤمن ينبغي أن يكون
المرء قد عاش في فاس مدينة العلم" (معلوف، 1990، ص: 147) فهم
يعتبرون الختان مناسبة دينية يجب الاحتفال بها وبعد انتقال "ليون" إلى
فاس التحق بالمدرسة وكان يهتم بحفظ القرآن حيث جاء في الرواية
"ختمت القرآن الكريم الذي نفح مراهقتي بالزهو بمعرفة تعاليم
الشريعة الإسلامية" (معلوف، 1990، ص: 146).

ومن هنا يمكننا القول أن الدين والثقافة الإسلامية تشكل
عنصراً مؤثراً في شخصية ليون الإفريقي لكن من جهة أخرى نجد هذه
الشخصية تتعامل مع الأمور الدينية باعتدال بعيداً عن التطرف

والعصبية ومع هذا فإنه لم يبتعد عن الجو العام الحقيقي الذي كان سائداً وكما تثبته كتب التاريخ لذلك نجد بطل القصة وفي كل مرة وأمام المواقف الدينية التي تصادفه لا يتخذ موقفاً معيناً مع أو ضد بل يترك الأمور تمشي كما هي وينظر إليها من جانب إنساني ولكن يمكننا القول أن النظر إلى الدين باعتباره مكوناً مهماً للهوية بهاته الطريقة وهذا المنظور الذي طرحه "أمين معلوف من خلال روايته "ليون الإفريقي" لا يبدو مختلفاً على الإطلاق عن تصوره السابق رغم أن الهدف الذي ينشده هو الجانب الإنساني في شخصية "ليون الإفريقي" هذا الأخير ورغم تأثره بالدين الإسلامي فهو حين اختطف واقتيد إلى روما وأُهدي إلى البابا "ليون العاشر" ثم إقناعه بالتنازل ففعل وتقبل ذلك وتصرف مباشرة وكأنه مسيحي بل ويحاول التأقلم مع الوضع حينما حاول أن يتعود على اسمه الجديد ورغم أنه كان يشعر بإسلاميته حيث يقول "وكنْتُ أعاني الأرق في كثير من الأحيان منذ وصولي إلى روما وانتهى الأمر إلى تمكين ما كان يجعل الساعات مضنية إلى هذا الحد كان ذلك أشد من غياب الحرية وأشد من غياب المرأة كان غياب المؤذن" (معلوف، 1990، ص: 311). هذا التحول العقائدي ينم عن روح التسامح والإنسانية التي كان يتحلى بها "ليون الإفريقي".

10 - الهوية الإنسانية والبحث عن الهوية:

تحمل رواية ليون الإفريقي دلالات متعددة، من أبرزها أن بطلها يحمل في داخله انتماءات متنوعة دون أن ينسب نفسه إلى مكان محدد. فهو متحرر من التقيد ببلد أو موطن بعينه، إذ يرتبط انتماءه بالمكان

بمدى إقامته فيه. وبذلك يصبح الانتماء عنده إنسانياً قبل أن يكون عرقياً أو إيديولوجياً، فكل أرض يقيم فيها تُصبح وطناً له. لقد عاش البطل في أماكن متعددة وتأقلم مع بيئات مختلفة، مما جعل هذه الأمكنة تشكل عناصر متنوعة لهويته.

يرى أمين معلوف من خلال بطله أن تعدد الهويات وعدم انحصار الإنسان في هوية واحدة أمر مقبول، ولا يُعدّ تنكراً للوطن الأصلي. فالفرد الذي يعيش في أماكن متعددة ويتأثر بها فكرياً وثقافياً واجتماعياً ودينياً، تتكوّن لديه هوية مركبة ناتجة عن التفاعل مع هذه التجارب. ومع ذلك، فإن هذا التفاعل لا يعني بالضرورة تغيير العناصر الجوهرية والثابتة في الإنسان، مثل الدين والقناعات الداخلية، إذ تظلّ هذه تشكل لب الشخصية وجوهرها الذي يصعب تغييره.

وقد تناول بول ريكور مفهوم الهوية الجماعية إلى جانب الهوية الفردية، في إطار الربط بين السرد والذات، حيث تتحول حياة الجماعة إلى نسيج سردي يشترك الأفراد في حياكته من خلال إعادة تمثيل تجاربهم. ويقول في هذا السياق:

"ومما يدل على فائدة فكرة الهوية أنها يمكن أن تنطبق على الجماعة كما تنطبق على الفرد (ريكور، 1999، ص. 52).

من هنا يمكن القول إن إثبات الهوية مساراً طويلاً تسلكه الذات عبر الرغبة في الاعتراف والسعي إلى انتزاعه من الآخر، حتى تصل إلى تحقيقه في توافق مع القيم الإنسانية.

إن الرحلة في رواية "ليون الإفريقي هي الحدث الرئيسي الذي نتقلنا من خلاله شخصية البطل "الحسن الوزان" بين فضاءات جغرافية

ثقافية متعددة وهي من خلال فعلي الحل والارتحال في كل فضاء منها تجسد جدلية الوطن والمنفى في علاقة الإنسان مع المكان ، كما أن البطل السارد ينقلنا من خلال رحلته إلى معاناة صراعات دينية متعددة الاتجاهات ، كما بيّنت سلفا يصوغ من خلال معابنتها موقفه منه معبرا عن الموقف الذي يتبناه الكاتب.

أما التنقل بين فضاءات جغرافية مختلفة فقد بدأ بانتقال "الحسن" مع أهله من غرناطة مسقط رأسه إلى فاس إثر النفي الذي فرض على الغرناطيين بعد سيطرة القشتاليين عليها وإذا كان الحسن السارد طفلا صغيرا فإنه لم يستطع أن يعبر عن مشاعر الحنين إلى الوطن أو الاغتراب في المنفى ولذلك تحول من سرد تجربته الذاتية إلى سرد تجربة الآخرين.

عمد "الحسن" إلى تفسير علاقة الإنسان بالوطن من خلال استحضار ثلاث حالات لأشخاص عانوا من تجربة النفي عن الوطن وتشبثوا به وترددوا في الإقدام على فعل الرحيل رغم اضطرارهم، ورغم تهديدات القشتاليين الشديدة لهم، وهؤلاء هم الذين سيجسدون مشاعرهم في حالة النفي عن الوطن حين يُفصح كل منهم عن سبب ترده، ويؤكد "الحسن" ذلك بقوله: "ولكنني لم أصدر عن أي بلد ولا عن أي مدينة، فأنا ابن السبيل وطني هو القافلة وحياتي هي أقل الرحلات توقعا"، وهو بقدر انتمائه لهذه الأوطان جميعا غير منتمي لأي منها فلا يشده إلى الوطن المتروك إلا طيف حنين يجد بديلا تعويضيا عنه "الوطن الجديد".

لقد صاغ معلوف مفهومه للوطن حين قال على لسان السارد "حسن": إن أعظم منة من الله تعالى على الإنسان هي أن يجعله يولد في جبل مرتفع تقطعه طريق تمرّ بها القوافل فالطريق تجلب المعرفة والغنى والجبل يمنح الحماية والحرية"، فالوطن هو المكان الذي يفتح على المعرفة والحرية والأمان، وينغلق على المعتدين الذين يهددون استقراره. كما أن الكاتب معلوف قد أكسب الوطن دلالة متحولة غير ثابتة إذ جعل الارتباط به مشروطاً بارتباطات زمانية أو مكانية معينة تتسم بقابليتها للتحويل لتتأسس في حيز مكاني آخر.

استطاع "الحسن" بقدرته على التفاعل العاطفي والإنساني مع كل امرأة من النساء اللاتي تزوجهن رغم اختلاف أعراقهن وأديانهن، أن يفك مفهوم الحبيبة الواحدة، ومن ثم يفكك مفهوم الوطن الواحد مؤكداً إمكانية الانتماء لوطن انتسابي لا أصولي.

إن العناصر السردية في ليون الإفريقي -من السارد إلى الزمن والمكان واللغة - لا تعمل كعناصر شكلية، بل تتفاعل لتشكّل بنية دلالية متكاملة تُجسّد الموضوع المركزي للرواية وهو الهوية الإنسانية بوصفها انفتاحاً على الآخر وسيرورة مستمرة للبحث عن الذات، فالسرد عند معلوف ليس مجرد نقل للأحداث، بل مشروع إنساني لإعادة بناء الذات في مواجهة الاغتراب.

خاتمة:

في ختام هذا البحث يمكن القول:

إنّ رواية "ليون الإفريقي" لأمين معلوف ليست مجرد سرد تاريخي أو سيرة متخيلة، بل هي رحلة فكرية وإنسانية في عمق مفهوم الهوية بكل تعقيداته وتشظياته. فالهوية، كما تجلّت في الرواية، ليست

معطى ثابتاً أو جوهراً مغلقاً، بل بناء سردي يتشكل عبر التجربة والذاكرة والحوار مع الآخر. ومن خلال تتبع السرد، نكتشف أن الذات لا تُعرّف إلا من خلال الحكى، وأن السرد ذاته يصبح وسيلة لإعادة صياغة الانتماء والوجود.

لقد جسّد حسن الوزان (ليون الإفريقي) نموذج الإنسان الذي حمل في ذاته تعدّد الأوطان واللغات والأديان، فتتقلّب بين الشرق والغرب، بين الإسلام والمسيحية، بين العربية واللاتينية، بحثاً عن وطن لا تحدّه الجغرافيا بل يوسّعه الفهم الإنساني. وهكذا تحوّل مفهوم الوطن في الرواية من فضاء مادي إلى فضاء رمزيّ متحرّك، يُقيم فيه الإنسان حين يعترف بإنسانيته الجامعة.

أما الآن والآخر في هذا السياق، فليسا ضدّين متنافرين، بل قطبان متكاملان في تجربة الهوية. فالآخر في الرواية ليس عدوّاً، بل مرآة تُعيد من خلالها الآن اكتشاف ذاتها. وهذا الانفتاح على التعدد هو ما يضيف على الرواية بعدها الإنساني العميق.

كما أن اللغة كانت أداة مركزية في بناء الهوية، إذ عبّرت عن التداخل الحضاري والعبور الثقافي، فكانت جسراً بين الذات والآخر، بين الماضي والحاضر، بين الانتماء والاغتراب. كذلك شكّلت الهوية الدينية في الرواية ميداناً للبحث عن التوازن بين الإيمان والتسامح، بين الثوابت والاختلاف، لتفضي في النهاية إلى رؤية إنسانية رحبة.

من خلال كل ذلك، يمكن القول إن ليون الإفريقي هو نموذج الإنسان الكوني الذي يتجاوز حدود العرق والدين والجغرافيا، فيسعى إلى بناء هوية سردية متصالحة مع ذاتها ومع الآخر، وبذلك تُجسّد

الرواية رؤية أمين معلوف للهوية بوصفها بحثاً مستمراً لا ينتهي، وحواراً
مفتوحاً بين الإنسان والعالم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 -اسماعيل وهيبه، رايس رشيد. (2017). تضاف اللغة والهوية في رواية "مملكة
الفراشة" لواسيني الأعرج -مقاربة ثقافية. مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية،
عدد3.
- 2 -بعطيش يحيى. (د.ت). خصائص الفعل السردى في الرواية العربية الجديدة.
مجلة كلية الآداب واللغات.
- 3 -ريكور بول. (1999). الوجود والزمان والسرد (المجلد ط1). (سعيد الغانمي،
المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- 4 -السعافين إبراهيم. (1980). تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام
(المجلد ط1). بغداد، العراق: دار الرشيد.
- 5 -عبد الله إبراهيم. (2005). موسوعة السرد العربي (المجلد ط1). بيروت،
لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 6 -العجمي محمد ناصر. (1993). في الخطاب السردى. نظرية غريماس (المجلد
ط3). تونس: الدار العربية للكتاب.
- 7 -عز الدين إسماعيل. (1999). ، الهوية القومية في الأدب العربي المعاصر (المجلد
دط). القاهرة، مصر: معهد البحوث والدراسات الأدبية.
- 8 -فرج نورة. (بلا تاريخ). إرتباكات الهوية، أسئلة الهوية والإشراق في الرواية
العربية الفرانكفونية. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- 9 -لحميداني حميد. (2003). بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي (المجلد
ط3). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- 10 -لوكاتش جورج. (1972). دراسات في الواقعية (المجلد ط2). (نايف بلوز،
المترجمون) دمشق، سوريا: منشورات وزارة الثقافة.
- 11 -الماضي شكري عزيز. (2015). فنون النثر العربي الحديث (المجلد ط1).
فلسطين: منشورات جامعة القدس المفتوحة.

- 12 - معلوف أمين. (1990). رواية ليون الإفريقي (المجلد ط1). (عفيف دمشقية، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الفارابي.
- 13 - معلوف أمين. (1999). الهويات القاتلة (المجلد ط1). (نبيل محسن، المترجمون) سوريا: دار الحصاد للطباعة والنشر.
- 14 - يقطين سعيد. (1997). الكلام والخبر، مقدمة السرد العربي (المجلد ط1). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- 15 - يوسف آمنة. (1997). تقنيات السرد في النظرية والتطبيق (المجلد ط1). اللاذقية، سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

✉.....✉